Al-Adab Journal **Vol. 68, No. 2, (June 2026)**
E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

Cultural Pluralism and Ideology in the Iraqi Novel

Prof. Carnaval Ayuob Mohsen (Ph.D.)
University of Baghdad- College of Arts
carnvall@coart.uobaghdad.edu.iq

Copyright (c) 2026 **Prof. Carnaval Ayuob Mohsen (Ph.D.)**

DOI: https://doi.org/10.31973/qkc9g070

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract:

The narrative discourse has always been linked to the ideological plans that govern universal reality, and from there it proceeds to reveal the various images that support the indicative trends towards reality and its problems and circumstances. The issue of ideology is what directs the interaction between the individual and the other and thus the formation of systems and practices within environments and societies, Here, it is necessary to link the type of ideas and standards that drive various interactions and the individual and his way of living, his philosophy, his group, and his affiliation. Perhaps the most important thing that can direct this issue is the method of managing class, factional, minority, and national reality at its various levels, which has become a living material for the parallel world that the novel presents when it is constantly inspired by what could happen in reality. Moreover, among the important issues that the novel has sponsored is the issue of cultural pluralism, identity and affiliation, especially in post-colonialism and the well-known trends that prevailed. Cultural pluralism is a concept that spread and expanded due to the gathering of immigrants in America during the twenties of the last century, here the emphasis was placed on understanding between multiple cultures through diverse ideologies, and it seems that the novelist's discourse has sought to present images of the struggle to assimilate a culture. Among the important issues raised by the novel is the issue of cultural pluralism, identity, and belonging, especially in post-colonialism and the well-known trends that prevailed. Multiculturalism is a concept that spread and expanded due to the gathering of immigrants in America during the twenties of the last century. Here, the emphasis was placed on understanding between multiple cultures through diverse ideologies; it seems that the novelist discourse has sought to present images of the struggle of absorbing the other's culture and trying to adapt to it by presenting multiple novel types such as the minority novel, the immigration novel, and the oral heritage novel. The Iraqi novel did not deviate from these trends, as it can be said that it sought to present revealing images of political, religious and economic ideology and their impact on the image of cultural pluralism in its society; especially after 2003, and what the elements of cultural pluralism faced in terms of individuals, ideas, religions and minorities and the extent of interaction with ethnic relations between members of society. Moreover, it showed that cultural pluralism is not the set of cultures that govern the universe, but rather the human being itself. It also presented cultural dualisms within the framework of the dialectical relationship between the self and the other, with a distinct awareness that is resulted from the ideology that ruled the turbulent Iraqi reality.

key words: Cultural pluralism, ideology, novel

Al-Adab Journal Vol. 68, No. 2, (June 2026)
E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

التعددية الثقافية والأيديولوجية في الرواية العراقية

أ.د. كرنفال أيوب محسن
جامعة بغداد / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

(مُلَخَّصُ البَحث)

لطالما ارتبط الخطاب الروائي بالخطط الأيديولوجية التي تحكم الواقع الكوني، ومنها ينطلق الى الكشف عن مختلف الصور التي تدعم التوجهات الإشارية نحو الواقع ومشاكله وملابساته، ومسألة الايديولوجيا هي التي توجه التفاعل بين الفرد والآخر، ومن ثم تكوين النظم والممارسات داخل البيئات والمجتمعات، وهنا لا بد من الربط بين نسق الأفكار والمعايير التي تدفع الى شتى التفاعلات وبين الفرد وطريقة معيشته أو فلسفته أو فئته وانتمائه.

ولعل أهم ما يمكن أن يوجه هذه المسألة هو طريقة إدارة الواقع الطبقي والفئوي والأقلّي والقومي والوطني بمختلف مستوياته، التي غدت مادة حيّة للعالم الموازي الذي تقدمه الرواية حين تستلهم بصورة دائمة ما يمكن أن يحدث في الحقيقة، ومن القضايا المهمة التي رعتها الرواية قضية التعددية الثقافية والهوية والانتماء ولاسيما في ما بعد الكولونيالية والاتجاهات المعروفة التي سادت، فالتعدد الثقافي مفهوم انتشر وتوسع؛ بسبب تجمع المهاجرين في أميركا في العشرينيات من القرن الماضي، وهنا جرى تأكيد التفاهم بين الثقافات المتعددة عبر الآيديولوجيات المتنوعة، ويبدو أن الخطاب الروائي قد سعى إلى عرض صور صراع استيعاب ثقافة الآخر، ومحاولة التكيف معها عبر تقديم أنواع روائية متعددة مثل: رواية الأقليات، ورواية الهجرة، ورواية الموروث الشفاهي.

والرواية العراقية لم تبتعد عن هذه التوجهات، إذ يمكن القول إنّها سعت إلى تقديم صور كاشفة عن الآديولوجيا السياسية والدينية والاقتصادية وتأثيرها في صورة التعددية الثقافية في مجتمعها ولاسيما بعد عام ٢٠٠٣، وما واجهته عناصر التعددية الثقافية من أفراد وأفكار وديانات وأقليات ومدى التفاعل مع العلاقات الإثنية بين أفراد المجتمع، وأظهرت أن التعدد الثقافي ليس مجموع الثقافات التي تحكم الكون وإنما هو الإنسان في حد ذاته، كما عرضت الثنائيات الثقافية في إطار العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر بوعي متميز تشكّل نتيجة الآيديولوجيا التي حكمت الواقع العراقي الضّاج.

الكلمات المفتاحية: آيديولوجيا، تعددية ثقافية، رواية.

مقدّمة:

إنّ التعدّد مفهوم يفضي إلى تخيل الطبيعة المبنيّة أصلا على الاختلاف، وهو ما يحكم الوضع البيئي للفرد ،ومن ثم يقدم كشفاً واعياً عن مجتمعٍ ما، ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ما ذهبنا إلى أن الأصل هو في التنوع والاختلاف والتعدد، وبما أننا بإزاء أنماط متعددة من الاختلافات التي قدمت نماذج عن شكل العلاقات مع الآخر بغض النظر عن طبيعتها، فلا بد من أن نسترعي الاهتمام المُنتج بهذا التنوع المصيري، إذ إن كل البيئات والمجتمعات تقف على قضية مشتركة تتعلق بالآخر المختلف ولا سيما مع وجود أقليات ذات خصوصيات متباينة عن غيرها في كل بيئة.

إنّ مسألة العدد الثقافي مفروضة تماماً تبعاً لطبيعة المجتمعات والبيئات كما ذكرنا سابقاً، مع بقاء القضية الأهم وهي التوجيه أو التأثير الأيديولوجي في التعامل مع خصوصيات متعددة، وأيضاً التعامل مع نطاق الخيارات تحت مظلة (السلم) ومستوى تحقيقه، و(الآخر) وما يشكّله من مصدر تفاعل مع الأيديولوجيا والسلطة بكل أنواعهما، ولا سيما أن انتشار مفاهيم التعددية الثقافية أظهرت إطاراً جديداً لاصطلاح العلاقة بين الاختلافات والتنوعات الثقافية (إبراهيم، ٢٠٢٠، ٩٩٠)؛ لذا كان الاتجاه في إيجاد صيغة التعايش المطلوب إلى أن يكون التعدد الثقافي واحدًا من أهم آلياتها، ولا بد من الإشارة إلى أنّ ما دفع إلى هذا هو ما ساد العالم من نزعات تحررية تدعو إلى ترسيخ العلاقات المختلفة وإيصالها إلى علاقة فهم مشترك واحدة، ولا سيما أن الإقصاء، والتهميش، والتعارض لم يناسبوا الظروف السكانية ،والتاريخية، والتكنولوجية، والاقتصادية التي يعايشها الفرد الآن، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى توجيه جديد للأيديولوجيا التي تتعامل مع هذا النوع من العلاقات المجتمعية.

وبعيداً عن مفهوم التعدد الثقافي وبداياته تكفي الاشارة إلى أنه بُدًّا باستعماله في "نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم للتعبير عن إمكانية التعايش المشترك بين الثقافات المتنوعة بمنأى عن هواجس الهيمنة التي قد تمارسها الثقافة الأوسع انتشاراً والأقوى" (بدر، ٢٠١٧، ٢٢٠).

ويبدو أن هذه المسألة أصبحت هاجساً لأطراف عدة، هاجسا للسلطة، والآيديولوجيا، وللأفراد، والجماعات، ولكلّ صاحب دور ومكان في المجتمع عموما، ومن هذا المنطلق أصبح مفهوم التعددية الثقافية لا يستعمل لوصف اختلاف المجتمعات وتعدديتها فحسب، وإنما يشير إلى التوجه والمشروع السياسيين للتعامل مع هذا التنوع (أبو سكين، ٢٠١٤، ٩٩٠) المفروض وفقاً لطبيعة الحياة الإنسانية التي تستند إلى التنوع العرقي، والبيئي،

والاجتماعي، والديني، وغيرها من التصنيفات التي باتت واقعا مصيريا يكشف عن طبيعة الحياة نفسها.

وتبعاً لذلك كان لا بد للأدب أن يتفاعل بالضرورة مع منتجات الحياة والواقع ولاسيما مع القضايا المهمة والمصيرية والتي تتعلق بالوجود الإنساني، ومسألة التعددية الثقافية شكّلت مادة مهمة وأحياناً رئيسة في الخطاب الروائي الذي أخذ يكشف القضايا المصيرية والواقعية تبعاً لطبيعته التي تقوم على عكس صور الواقع، أو تسجيل الحقائق، والرواية العراقية أخذت دورها في هذا حين عرضت نماذج عن التعددية الثقافية والعلاقات الإثنية في ضوء طبيعة البيئة العراقية التي تقوم على التنوع، وأظهرت سلطة الآيديولوجيا القائمة تجاه هذه العلاقات سياسيا ودينيا واجتماعيا.

وغالباً ما أظهر السرد الأوضاع المزعزعة للآخر في العالم المتخيل بناءً على الخلفية الدينية والمذهبية والعرقية والقومية، وتضج الرواية العراقية بنماذج متعددة وكثيرة منها (إبراهيم، ٢٠١٧، ٤٥)، ولا سيما مع تزايد الحاجة لإظهار الهويات الأخرى وإظهارها والتي تنفصل عن نظام الانتساب العام للدين أو القومية أو العرق، مع ما طرأ على الوضع العام من صراعات سياسية وغيرها أدت إلى تغيير هائل على المستويات كلّها، فتصدت الرواية في العراق لهذه المسألة وبشكل مطرد، فظهرت عوالم تقوم أصلاً على موضوعة العلاقات الثنائية ،والآخر، والانتماء، وأزمة الهوية في ظل الآيديولوجيا ودورها في توجيه مثل هذه العلاقات، إذ أسهمت هذه الآيديولوجيات في تكوين طبيعة العلاقة تشابكا أو تقاطعا ضمن مجتمعاتها وبتنوع قدمه الآخر وفقاً لردة فعله تجاه النظام والفكر السائد.

أولاً : التعدد الثقافي وملامحه في الرواية العراقية

يخضع الخطاب الروائي لتأثير الظواهر التي تعكسها طبيعة الحياة الواقعية والحقيقية، وما مسيرة هذا الجنس الأدبي إلّا انعكاس وتفاعل مع ما يحدث في الواقع والتاريخ ومع الحوادث والمواقف، ولا سيما الحركات المهمة التي تنقل المواقف من شكل إلى آخر، ومن مستوى إلى آخر، فضلاً عن تكوينه لوثائق ليست تسجيلية بقدر ما هي وجدانية تؤرخ للحظات المفصلية والحرجة؛ لذا فإن صلة الخطاب الروائي بالحياة من صميم طبيعتها، والرواية شكل من أشكال الثقافة قبل أن تكون أدباً، ومن هذا المنطلق لا بد من الاشارة إلى أنها النمط الموازي للحياة الذي يعرض الإشكالات والمواقف والحوادث ،ويقدم نماذج الشخصيات، ويحيل إلى الأزمنة والأمكنة دائما.

ولا يمكن فصل دور الرواية العراقية بالطبع عن دور مثيلاتها، بل لعل دورها كان أكثر كشفاً وهي توجه التساؤلات ،وتحيل إلى الأزمات المصيرية دائماً، وأهم ما أشارت إليه وتصدت له ظاهرة التخالط الثقافي ،ودور السلطة والآيديولوجيا في توجيه العلاقة مع (الآخر الإثني) في ظل التشابك بصورتيه: التناحرية ،والاندماجية.

إنّ طبيعة العلاقة مع الآخر وعناصر التعدد الثقافي تحددها بالطبع طبيعة الأحداث والتأريخ، وربما بدت هذه الصورة أكثر كشفاً بعد عام ٢٠٠٣، نتيجة الانقلابات الهائلة التي حصلت على صعيد العالم، إذ أخذت الرواية تقدم نماذج عن العلاقات في ظل التعدد الثقافي بشكل متسارع ومتواصل يتناسب مع الكم الهائل من النتاجات التي أخذت تزداد بشكل مطرد، وتحديداً إظهار وجه الآيديولوجيا التي تتحطم بشكل مباشر في التنوع: الأقلي، واللغوي، والديني ،والاثني عموماً، وتعاملها وفقاً للفكر السياسي والاجتماعي والديني السائد.

ولما يتمتع به المجتمع العراقي من تنوع معروف كان من الطبيعي أن نجد أشكالاً للعلاقات في ظل هذا التنوع انعكست صورتها في الخطاب الروائي الذي أضحى وسيلة وثائقية لتقديم علاقات التعدد الثقافي داخل سياق معقد ومتداخل من الاشتباكات ضمن فضاء البيئة الواحدة.

لقد أحالت الرواية العراقية إلى قاعدة غنية من شكل العلاقات الإثنية في ظل التعددية الثقافية تحوي أنواعًا من التعايشات، فضلا عن أنواع أخرى من التنازعات. والواضح أن شكل هذه العلاقات وطبيعتها يفرضها الواقع التأريخي ومواقفه، فالعلاقات الأثنية جنحت في الرواية العراقية قبل ٢٠٠٣ إلى تقديم شكل من التفاعل وفقا للآيديولوجيا السياسية ،والاجتماعية، والدينية السائدة، مختلف عن ما قدمته لنا بعد هذا التأريخ، فما تكشف عنه الآن يسائل الحيثيات العميقة لأزمة التنوع الثقافي مع الآيديولوجيا وضغطها، فسنان أنطون يقترح شكل العلاقة الإثنية التي اكتنفتها روايته (يا مريم) عبر شخصية البطل (يوسف) المسيحي الذي يرتبط بشكل وثيق وحميمي ببلده العراق، ونفهم من السرد شكل علاقته مع أصدقائه وجيرانه من الثقافة الأوسع، فضلاً عن أهله وأقربائه، ونرى تلك الوشائج المتعددة التي تربطه ببيئته بحلقات مختلفة كلٍّ في إطارها المحدد، فهناك وظيفته وجيرانه وأصدقائه وأهله: "سألني سعدون:

((رايح للكنيسة اليوم ؟))

((أي طبعا.))

((والله لو مو عندي موعد الدكتور جان اجيت وياك . بس عندي الفحص الدوري ماكدر أأجله.))

كان قد حضر قدّاس وجنازة حنّة ورافق تابوتها إلى المقبرة وساعدني في إنزاله إلى القبر. جلس في الصف الأول في الكنيسة وقرأ الفاتحة مرتين على روح حنة، ونظر إليه بعض الحضور باستغراب يومها .(...) تسلم عيوني آني أشعللها شمعة بمكانك)).

((أي الله ايخليك والله مثل أختي. الله يرحمها)) (أنطون، ٢٠١٤، ٧٨– ٧٩).

يعمد الكاتب إلى تكثيف الرؤية تجاه علاقة التعدد الثقافي، فيوسف المسيحي يرتبط بصداقة طويلة الأمد مع سعدون المسلم الذي يشاركه في مواقف الحياة ،ويقف إلى جانبه دائما بحكم الصداقة والعشرة والمحبة، وهو يركز على نقاط الارتباط مع الآخر أكثر من تركيزه على نقاط الافتراق إلى الحد الذي يجعل من يوسف وحيداً بعد سفر ما تبقى من عائلته وأقاربه من المسيح للخارج ؛نتيجة العنف، والأوضاع الصراعية التي اجتاحت البيئة، ويبدو أن طبيعة الواقع العراقي وخصوصيته قد حددا وبشكل كبير نوع العلاقات مع الآخر في ظل النوع البشري والبيئي، مما حدا بالكاتب إلى الإحالة دائما إلى البنية المجتمعية الثقافية حين يربط وبشكل واضح بين الذاكرة التي تحكم الأفراد وبين نوع هذه العلاقات وطبيعتها، إذ غالباً ما تُعرض هذه المسألة في خضم الذاكرة الخاصة للفرد التي تحتفظ بكم هائل منها، وتشير إليها بوازع نفسي مستمر ومتواصل "جدتي لوالدتي إيرانية الأصل .. جميلة على نحو لا يصدق .. بيضاء ضفائرها بلون الفضة، وخدّها بلون الورد تلبس البياض وتتكلم الفارسية مع والدتي ووالدي، أما معنا فعربية مكسرة" (ملك، ٢٠١٦، ٤٩).

تحيل الكاتبة نسرين ملك في المثال السابق إلى ذاكرة ضاجة بنوع من أنواع التعايش الثقافي حين تشير على لسان البطلة إلى أصل جدتها (الإيرانية في كشف واضح عن صورة مجتمعية سائدة دون أن يكون هناك (أزمة)، بل هي تلفت لوضع مجتمعي مؤسس على هذا النوع من التعدد، ويبدو أن هذه الكشوفات التي مارسها الكاتب الروائي هي لأجل تعميق الاهتمام بشكل الصورة المجتمعية السائدة أو المألوفة وما تنطوي عليه رؤية الفرد للآخر في ظل التنوع والتعدد، والعالم الذي يتحرك فيه وتأطير الأدوار المرسومة في الفضاء الخاص لهذه العلاقات.

إن الرؤى التي تكشفت لنا بخصوص هذه المسألة قد ربطت إطارات هذه العلاقات بالشرط التاريخي لوجودها؛ لأن الكتابة السردية دائما تحيل إلى المرجعيات التي تدعم أو تحقق الصلات؛ لذا فإن الخطاب الروائي العراقي يستند إلى خزين مهم وواعٍ لظروف هذه الصلات ووجودها الدائم، ونموها ،وتفاعلها في ظل الشروط التاريخية التي تنتجها.

إن الإفصاح عن قضية التعدد الثقافي وما يحيط بها يستلزم تقديم وجهة النظر والرؤية لكل طرف من الأطراف ولا علاقة للأمر بالأدوار الكبرى أو الآيديولوجيا المؤثرة، إنما هو تسجيل مفروض وذاكرة ثابتة، وهو ما كشفته كثير من النماذج الروائية العراقية، فالدكتورة

وردية بطلة رواية طشاري تقدم وجهة نظرها ورؤيتها لقضية العلاقات الإثنية في ظل التعدد الثقافي في العراق "تطلع من صدرها زفرة ذات صفير وتُقرّ بأنها اختارت إلى أن تجيء إلى هنا بملء إرادتها. ليس صحيحاً أنها هجرت الوطن الملعون بسبب تراجع البابا عن الذهاب إلى أور. تلك حجة تافهة. مرهم مسكن مثل عجينة الأوكالبتوس الصينية النفاذة تفرك بها ضميرها لتخفف من دبيبه، تعرف أن الأوطان ليست تطريزات في جبب الباباوات " (كجة جي، ٢٠١٤، ١٢٩).

إذ لا بد لطرف العلاقة الآخر أن يمتلك فلسفته تجاه الأزمة غالباً، وهي فلسفة تفسيرية لكل رد فعل يصدر منها تجاه الواقع والبيئة. عند ذلك نكون بإزاء استراتيجية واعية للخطاب الروائي تنضبط وفقاً لخصوصية البيئة المجتمعية وفكرها السائد في تواصل فني بين الكاتب وخطابه وآيديولوجيته وبين المتلقي لتأطير ثنائية (الأنا والآخر) في ظل التعددية الثقافية، إذ اعتمدت الرواية العراقية في فكرها الجديد إظهار التطبيق الواسع للاتجاهات الاجتماعية، والدينية، والسياسية التي تحكم الآخر الذي ينوء بالمغايرة في المعتقد أو العرق أو اللون أو الطبقة، ويجري تمييزه إما بالرفعة أو بالدونية (إبراهيم، ٢٠١٧، ٤٥).

ثانياً: تأثير الآيديولوجيا في بيئة التعددية الثقافية

كان دور الآيديولوجيا حيوياً دائما؛ لأنّ مجالها الواقع؛ ولأنّها الأفكار المتسامية على الوضع وعلاقتها بالأفراد ليست سهلة وهي تشّكل جزءاً عضوياً في كل وحدة مجتمعية، وهي بنية ضرورية للحياة التاريخية (ناي، ٢٠٠٩، ١٠٩– ١١٠) بالطبع ،وتتحدد وظيفتها في التنظيم المجتمعي، فهي تضع الشروط المطلوبة لترسيخ علاقتها بالأفراد، وهي أيضا فرض نظري يجعل من الدين ،والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد محوراً لها، وموضوعها الفرد والبيئة حين تجعل غايتها الالتزام وربما الانضباط. وربما شكّلت الآيديولوجيات المختلفة والتعامل معها تحدّياً للأفراد ولاسيما مع الذين لا يحملون مستوى واحداً من التماسك والصلابة الفكرية التي تؤهلهم للصمود، فنراهم يصطدمون بضغوط سلطات الآيديولوجيا أياً كان نوعها.

والوضع مع الآخر الإثني أكثر كشفاً في مسألة تعامله مع الآيديولوجيا السائدة بمختلف مستوياتها، ولا سيما إذا كان هذا الآخر تتنازعه هموم عامة تتعلق بوجوده وقيمته وتأثيره، وهو ما لفتت إليه الرواية بشكل عام حين عكست شكل العلاقة مع الآخر في ظل الآيديولوجيا وتأثيرها في عناصر التعدد الثقافي، فالوضع السياسي يوجد دائما آيديولوجية تقوم على التسلط أولاً، وتهدف إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من التزام الأفراد تجاهها، ولا سيما أفراد التعددية الثقافية والأقليات أو بشكل أعمّ الآخر الإثني الذي غالبا ما تكون هويته وثقافته محط اختبارات وسط الثقافة العامة، فالروائية (حوراء النداوي) تعرض في روايتها **(قسمت)**، قضية الأكراد الفيليين الذين تعرضوا للتسفير أبان الحرب العراقية الإيرانية .وهم

فئة تعرضت للضغط الآيديولوجي السياسي الذي اتخذ شكل قرار حكومي بتسفيرهم إلى خارج العراق ولاسيما من لم يمتلك الجنسية العراقية وقتها " لم تكن المرة التي أرى فيها خالتي قسمت هي الأولى في المخيم في شتاء العام ١٩٨٠ لكنني دائما ما أتذكرها كأنها المرة الأولى لاحت لي بضع مرات من بعيد، وكنت أكذب نفسي معللاً أن يكون الليل المطبق علينا هو السبب في ما ظننته خيالات تظهر وتأفل حتى بان فجر اليوم التاسع منذ أن ألقوا بنا على الحدود وتهنا بين الجبال ثم تكدسنا في المخيم ذاك الذي آوانا لأيام قبل أن نجد فرصة للخلاص" (النداوي، ٢٠١٨، ١٣٣- ١٣٤).

فالكاتبة قد أحالت عبر(قسمت وعائلتها) إلى تأريخ مهم في حياة الأقلية الكردية الفيلية التي تعرضت – وبقرار سياسي – للتهجير والتسفير.

إنّ هواجس الهيمنة الآيديولوجية السياسية قد مارستها الثقافة الأوسع انتشاراً والأقوى بوصفها (الضابطة) للبيئة المحكومة، ولعلّ هذا التأثير هو الأقوى سلطويا من بين التأثيرات الأخرى؛ لأنه يتعلق بالوجود وبالممارسات الحياتية المطلوبة، فضلا عن القانون الذي يتفرع عنها (الآيديولوجيا السياسية) والذي تخضع له الأطراف كلها، و فلسفة الإقصاء أو الإلغاء هي محاولة لرفض الآخر التي ربما تنتهجها الثقافة الأوسع التي تدفع إلى حجب أو أبعاد الهوية الفرعية.

إنّ قراءة الواقع السياسي العراقي تحتم ربطه بالآيديولوجيا التي حكمته وشكلت إطاراً له؛ لأنّها أصلاً انطلقت منه بوصفه واقعاً نشطت فيه تيارات فلسفية وافدة، والظاهرة السياسية سواء اتخذت شكل الدولة أو كانت آيديولوجيا ساندة للسلطات المجتمعية، ظاهرة لصيقة بالوجود الإنساني يكمن جزء من دورها في تحديد الممارسات الثقافية للآخر الذي تتباين ردود أفعاله بحسب الموقف " شنو إلهم؟ البلد بلد الكل، وبلدنا وبلد أجدادنا، إحنا قبل غيرنا. التأريخ يثبت ... من زمن الدقناووس. من الكلدانيين للعباسيين للعثمانيين وتأسيس الدولة العراقية. المتاحف تشهد. إحنا موجودين قبل غيرنا. إذا مو بلدنا لعد بلد منو؟ ما تقليلي؟" (أنطون، ٢٠١٤، ٢٦).

يدفع الخطاب الروائي إلى وجوب الإيمان بحرية الآخر، حين يعرض صور السلطة الآيديولوجية ،وتأثيرها في أطراف العلاقة الثقافية، وقد تجلّت هذه المسألة بالكشوفات التي يقدمها عن طريق النماذج والعلاقات، فهو يؤسس لقضية التنوع الديني وتأثير الآيديولوجيا فيه حين يقدم شكل ممارسات الثقافة الأقلية في ظل الثقافة الأوسع، وصورة التأثير الديني بدت واضحة في نتاجات عدد من الروائيين الذين عرضوا العلاقة مع المختلف دينياً "الذي يسعى للحفاظ على معتقداته بكل صورة؛ لأنّ الأقليات الثقافية غالباً ما تكون ضعيفة في

مواجهة الضغوط الاقتصادية والسياسية والثقافية التي يمارسها المجتمع الأكبر"(مجيد، ٢٠١٠، ٢٤٦).

فالدكتورة وردية وعائلتها اختبرت موقفاً مصيرياً نتيجة اختلافها الديني عن الثقافة الأوسع، فهي مسيحية نشأت في ظل بلد إسلامي، إلا أنّ الانقلابات المهولة التي واجهت بلدها ألقت بظلالها على مسألة التعايش التي أصبحت الآن على المحك "السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فعندكم عشر أيام لتنفيذ هذه الفتوى وإعطائنا بنتكم زوجة حلالا لأمير جماعتنا أو أن نذبحكم كلكم ونأخذ بيتكم يا كفار وإلى جهنم وبئس المصير" (كجة جي، ٢٠١٤، ١٢٩).

يخضع التنوع الديني ومسألة التعايش بالضرورة لآيديولوجيا السياسة ومتطلباتها التي غالبا ما تكتسح الفكر المغاير بل وترفض في أحيان كثيرة الذات الأخرى بموروثها الثقافي والديني، وتتجاهل خطوط الانفتاح على هوية الآخر بمقوماتها، ومكوناتها، ومنظومتها القيمية.

أمّا الآيديولوجيا الاجتماعية فإنّ هيمنة سياقات الثقافة الأوسع تفضي إلى خلق حالة من عدم التوازن في العلاقات الإثنية ولاسيما السياقات الاجتماعية، فالاختلاف بين الأكبر والأقل يأخذ طابعاً إشكالياً نتيجة الفارق الثقافي، وتتباين هذه الفروقات بحسب حركية نظام الانتماء ومنظومة الثقافة التي يمثلها كل طرف من الأطراف، فـ(مها) المسيحية تقف مرتبكة أمام الوجود الاجتماعي المهيمن والمؤثر الذي تعيش فيه خاصة بعد الأحداث التي اجتاحت العراق بعد ٢٠٠٣، "هو لا يتعامل مثلي بشكل يومي مع كل الذين أتعامل معهم أنا. لا يسمع ما أسمعه ولا يرى ما أراه كل يوم. لا يمكن أن يتخيل مشاعر امرأة وهي تتعرض لكل تلك النظرات. النظرات التي أشعر وكأن أصحابها يلتقطون صور أشعة أجتماعية ليحددوا طبيعة مرضي ونجاستي لأني لست مثلهم أو من ملّتهم" (أنطون، ٢٠١٤، ١١٠).

يدرك أطراف العلاقة الإثنية جوهر التباين بين المشاع والمؤثر والفاعل وبين التعدد الثقافي الذي قد لا يجد له قاعدة ثابتة تسنده أو أرضاً خصبة يطمئن إليها؛ لأنّه يصطدم دائما بنظام اجتماعي قيمي عريض يعاني من إشكالية قبول الآخر المختلف، ولسنا بصدد تقويم الصور التي عرضتها الرواية العراقية بقدر الاهتمام بوجودها ،وكشفها عن المواقف الحياتي المتعلقة بالظواهر المؤثرة.

ثالثاً: الانتماء الثقافي في ظل تقلبات الآيديولوجيا وتحولها.

تنضبط المجموعات الأقلية أو أطراف التعدد الثقافي لقوانين الآيديولوجيا العامة متى ما كانت توفر جانباً من الاستقرار لا تحتاج معه إلى ممارسة أي نوع من أنواع الصراعات؛ لذا يقدم لنا الخطاب الروائي شكلين من المعالجة التي تمارسها الأقليات تجاه مجتمعاتها مما يجعل القارئ أمام مقارنة المواقف التي تتلخص في (مع أو ضد)، فالشكل الأول يكشف عن التعالق الذي تعيشه الأقليات في العلاقة مع السائد الأوسع، وهو غالباً يقدم سرد حياتها في ظل القبول والتعايش، وشكل آخر يكشف عن التغييرات الآيديولوجية بأنواعها التي تؤثر في شكل الحياة ونسقها، فتعرض مشاهد أخرى تعكس منظوراً آخر.

فسرد حياة الدكتورة وردية سار وفقاً لاتجاهين في ظل الآيديولوجيا المتغيرة، فنحن أمام حياتها وحياة أسرتها في ظل القبول "تأتي زميلاتها المسلمات واليهوديات لمعايدتها في عيد القيامة ويجلسن في غرفة الخطار مثل الكبار يشربن الشاي ويأكلن الكليجة. تدور بينهن أحاديث لطيفة" كجة جي، ٢٠١٤، ٨٢). القارئ بإزاء نوع من أنواع التعايش الإيجابي بين أطراف العلاقة الإثنية يعكسه موقف الاجتماع في مناسبة دينية مسيحية لم تمنع الآيديولوجيا السائدة من اشتراك مجموعة من الفتيات المسلمات واليهوديات لتهنئة صديقتهن، وفي مشهد آخر وبعد تخرج الدكتورة وردية وتعيينها في الديوانية لم يمنع معشيتها هناك كونها مسيحية ومن أهل الموصل "تأتي صديقتها اليهودية أم يعقوب وبيدها أم سبع عيون مربوطة بشريط فضي، تعقده على مرآة السيارة وتترك الحلية تتدلى منه.

– بدا لكي ... ما تفكين الشريط لو إيش ما صار" (كجة جي، ٢٠١٤، ١٠٠).

ثم تحدث الانتقالة الهائلة التي تغير من هذا المشهد برمته حين تعكس العلاقة الثقافية منظوراً آخر يرزح تحت وطأته المكون الأصغر "بقي أبو يعقوب، صاحب معمل الطابوق في الديوانية مع أسرته حتى أواخر الستينيات. لم يضايقه أحد ولم يضايق أحداً. ثم نُصبت المشانق للجواسيس اليهود في ساحة التحرير في بغداد وتوترت الأجواء. صار يسمع ما لا يحب وراح الأخضر بسعر اليابس. ولم ينتظر الرجل ما هو أدهى. أخذ أسرته وسافروا إلى لندن. وقيل إنهم صاروا في إسرائيل" (كجة جي، ٢٠١٤، ١٠٠).

إنّ القضية الرئيسة هي قضية أصل وانتماء وهوية ، تمثل نقطة ارتكاز مهمة في العلاقة بين السائد والنادر ،وتؤدي إلى التصارع الثقافي الذي يمنع الأقلية من مواصلة حركتها ونشاطها، ويؤثر في الخطاب الثقافي الذي سرعان ما يتغير بتغير الآيديولوجيا وسلوكها تجاه الأقلية حين تحاول أن تغير السمات الاجتماعية لها وتحصرها في خانة عدم القبول، على الرغم من الارتباط الوثيق بالأصل، فأغلب الأقليات ترتبط بشكل وثيق ببيئتها وتحافظ على خصائص هوياتها عبر التمسك بالعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية،

وممارسة الموروث الثقافي بشكل منتظم، فضلا عن احتفاظها بالسمات التأريخية التي تظهر تباينها عن غيرها في محاولة لتأكيد الهوية التي تتعرض لاختبارات متواصلة في خضم اتجاهات الآيديولوجيا وما تحمله للآخر، ومقاومة هذه الهويات من أجل الثبات والحفاظ على التأريخ الخاص انطلاقاً من نوع التجربة التي تتعرض لها والإرغامات الآيديولوجية والآفاق الفكرية التي تسود وفقاً للعوامل المختلفة، إذ يواصل الخطاب الروائي تقديم الصور المتباينة التي تعيشها الأقليات بين الأمس واليوم في إشارة واضحة لانقلاب الآيديولوجيا وتأثيرها فيها "عندما أكملت سليمة، الأخت الوسطى، المدرسة الثانوية بتفوق عام ١٩٥٦ كان وضع العائلة المادي قد تحسّن كثيراً. فراتب يوسف وما تقتطعه حبيبة من راتبها من التمريض وما يبعثه غازي من كركوك كان يوفر لهم حياة جيدة. كان اليسوعيون قد افتتحوا للتو جامعة الحكمة في الزعفرانية، فاقترح يوسف على سليمة أن تتقدم بطلب الدخول إليها وفرحت كثيراً عندما قال لها إنه سيتكفل بالأقساط" (أنطون، ٢٠١٤، ٥٥). فهذه الظروف التي يسردها الكاتب عن عائلة يوسف مثّلت شكل الانتظام والالتزام الآيديولوجي تجاه كل المكونات عبر العيش المطمئن والاستقرار المادي والمعنوي، إلا أن الأمر تغير لتصبح الظروف مغايرة تماماً حين تتعرض العائلة لاختبارات قاسية تبعاً للتغير السياسي والاجتماعي والديني الذي طال بيئتها التي تعيش فيها "مخلص خالي الوحيد اختفى فجأة ولم يعد يزورنا في البيت (...) وعندما كانت أمي تستقبل الجيران أو الأقارب وتسرد الحكاية على إيقاع الدموع وهي (اختطاف) (...)، كانت جدتي تردد في العزاء وهي تبكي بأنهم اختطفوه وقتلوه لأنه مسيحي" (أنطون، ٢٠١٤، ١١٤، ١١٦).

تعمد الرواية وفقاً لخطتها السردية إلى الكشف عن مستويين من التأثير، وهو ما لمسناه حين تستجلب الذاكرة الثقافية المواقف وفقاً لفكر أيديولوجي تكون مسألة التعايش والقبول مألوفة جداً، ومستوى آخر يقدم فكرة أخرى تقوم على الرفض والإقصاء، وهما مستويان حافلان بالدلالات التي تحيل إلى طابع الآيديولوجيا بأنواعها، فالجانب الديني أخذ يتجه لفكرة وجود أهل الكتاب أو الذميين"، والجانب السياسي تتلخص وجهة نظره بالآخر المختلف الذي يجب أن ينصاع للثقافة الأوسع، والجانب الاجتماعي الذي أخذ فكره يرفض عادات الأقلية وتقاليدها وينكرها، والواقع أن الرواية لا تناقش هذه المسألة بشكل مباشر، وإنّما تعرض ظواهرها على شكل مواقف تترك لنا مسؤولية تمحيصها وتفكيكها ،وعقد المقارنات بين المتضادات منها.

الخاتمة:

شكّلت موضوعات التعددية الثقافية، والأقليات، والعلاقات الإثنية، والهوية، ثيمات مهمة وحاضرة وكاشفة بقوة عن الواقع المتقلب، فضلاً عن أنها عكست وجوه الأيديولوجيات المتعاقبة والمتباينة ،وتجاهاتها ،وأثرها في تنظيم العلاقة مع التعدديات الثقافية التي هي جزء ثابت من النسيج العام، وقد تمكن الروائي العراقي من توظيف خططه السردية بشكل يتلاءم مع الفكر السائد وما تفرزه الصراعات نتيجة الحواجز الفكرية والثقافية التي تتكون عبر الأيديولوجيات، ويمكن أن نلمس بعض النتائج التي عرضتها رحلة الورقة البحثية هذه وهي:

– كشفت الرواية العراقية أن الآيديولوجيا ومساراتها تؤثر بشكل مباشر في طبيعة العلاقات الإثنية وعلاقة الثقافة الأقل بالثقافة الأوسع.

– يستند الخطاب الروائي العراقي في قضية الهوية والتعددية الثقافية دائما إلى مسار خط الذاكرة من أجل إظهار مستوى العلاقات وتباينها في ظل المتغيرات المصيرية التي تستهدف البيئة.

– يظهر الكاتب الروائي أفراد علاقات التعدد الثقافي وهم يحاولون إثبات انتمائهم وأصولهم كردّ فعل على محاولات إقصائهم أو رفضهم.

– تتباين تأثيرات الآيديولوجيات بأنواعها في أطراف التعددية الثقافية بحسب المسارات التأريخية، وبحسب علاقة المركز مع الأطراف.

المصادر والمراجع

إبراهيم، إقبال شوقي، ٢٠٢٠، *التعددية الثقافية في القرن الحادي والعشرين*، مجلة كلية التربية ، المنصورة، يناير.

إبراهيم، عبد الله، ٢٠١٧، – *الفصاحة السردية الجديدة ، المفهوم وبعض نماذجه التمثيلية* ، كتاب كتارا (الرواية العربية المعاصرة ، ثوابت ومتغيرات).

أبو سكين، حنان، ٢٠١٤، *في مفهوم التعددية الثقافية*، المجلة الاجتماعية القومية.

أنطون، سنان، ٢٠١٤، *يا مريم*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان.

بدر، فاطمة، ٢٠١٧، *الرواية العراقية والتعددية الثقافية*، أعمال مؤتمر السرد الثاني (السرد والهوية)، الجامعة المستنصرية.

بن عيسى، أسماء، ٢٠٢١، التعددية الثقافية والتعايش مع الآخر في السرد الروائي للطاهر وطار – الشمعة والدهاليز أنموذجاً، مجلة مهد اللغات ، المجلد ٣، العدد ٣، سبتمبر.

راتانسي، علي، ٢٠١٣، التعددية الثقافية ، مقدمة قصيرة جداً، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

علي، حسام الدين مجيد، ٢٠١٠، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر، جدلية الاندماج والتنوع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان.

عماري، أحلام، وبن ميلود، سمية، ٢٠١٦– ٢٠١٧، الدراسات ما بعد الكولونيالية وتلقيها في النقد العربي المعاصر، مذكرة لنيل شهادة الماستر في اللغة والادب العربي، جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانه.

كجة جي، إنعام، ٢٠١٤، طشاري، دار الجديد ، لبنان.

كيمليكا، وليم، ٢٠١١، أوديسيا التعددية الثقافية ، سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوع، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ع٣٧٨، ج٢.

ماتز، جيسي، ٢٠١٦، تطور الرواية الحديثة، دار المدى، بغداد.

مطر، ناجي عباس، ٢٠١٧، السرد ومكر الايديولوجيا، أعمال مؤتمر السرد الثاني (السرد والهوية)، الجامعة المستنصرية.

ملك، نسرين، ٢٠١٦، سارق اللافندر، دار الجديد ، لبنان.

ناي، مالوري، ٢٠٠٩، الدين الأسس، الشبكة للابحاث والنشر، بيروت.

النداوي، حوراء، ٢٠١٨، قسمت، منشورات الجمل ، بغداد – بيروت.

References

Ibrahim, Iqbal Shawqi, 2020, Multiculturalism in the 21st Century, Journal of the Faculty of Education, Mansoura, January.

Ibrahim, Abdullah, 2017, The New Narrative Eloquence: The Concept and Some of its Representative Models, Katara Book (Contemporary Arabic Novel: Constants and Variables)

Abu Sakin, Hanan, 2014, On the Concept of Multiculturalism, National Social Journal.

Anton, Sinan, 2014, Ya Maryam, Arab Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, Lebanon.

Badr, Fatima, 2017, The Iraqi Novel and Multiculturalism, Proceedings of the Second Narrative Conference (Narrative and Identity), Al-Mustansiriya University.

Ben Issa, Asma, 2021, Multiculturalism and Coexistence with the Other in the Narrative of Tahar Wattar: The Candle and the Corridors as a Model, Mahd Al-Lughat Journal, Volume 3, Issue 3, September. Rattansi, Ali, 2013, Multiculturalism: A Very Short Introduction, Hindawi Foundation for Education and Culture.

Ali, Hossam El-Din Majid, 2010, The Problematic of Multiculturalism in Contemporary Political Thought: The Dialectic of Integration and Diversity, Center for Arab Unity Studies, Beirut, Lebanon.

Ammari, Ahlam, and Ben Miloud, Soumia, 2016-2017, Postcolonial Studies and Their Reception in Contemporary Arab Criticism, Master's Thesis in Arabic Language and Literature, University of Djillali Bounaama, Khemis Miliana.

Kajjaji, Inam, 2014, Tashari, Dar Al-Jadeed, Lebanon.

Kimlika, William, 2011, Multicultural Odyssey: Exploring New International Politics of Diversity, Monthly Cultural Book Series published by the National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, No. 378, Vol. 2. Matz, Jesse, 2016, The Evolution of the Modern Novel, Al-Mada Publishing House, Baghdad.

Matar, Naji Abbas, 2017, Narrative and the Cunning of Ideology, Proceedings of the Second Narrative Conference (Narrative and Identity), Al-Mustansiriya University.

Malak, Nasreen, 2016, The Lavender Thief, Dar Al-Jadeed, Lebanon.

Nai, Mallory, 2009, Foundational Religion, Al-Shabaka for Research and Publishing, Beirut.

Al-Nadawi, Hawraa, 2018, Qismat, Al-Jamal Publications, Baghdad-Beirut.